الفصل الرابع

صراع القوى الكبرى

كان للحملات والانتصارات الحربية الحاسمة التى حققها الجيش المصرى فى سوريا وكنعان (فلسطين) بقيادة فرعون مصر المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » عظيم الفضل فى توطيد أركان الإمبراطورية المصرية فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، وفى جعل مصر القوة السياسية والحربية العظمى فى المنطقة لسنوات طوال .. ومن ثم فقد عمل الخلفاء المباشرين للملك « تحوتمس الثالث » على السير على نهجه إلى حد بعيد ، ومواصلة الحملات الحربية المصرية فى سوريا وكنعان لقمع كل القوى المناهضة للنفوذ المصرى فى المنطقة ، فجنت مصر ثمار هذه الرؤية السياسية والاستراتيجية فى توطيد نفوذها وتأمين حدودها ، حتى تغيرت هذه السياسة منذ أواخر عهد « أمنحتب الثالث » وخلال عهد « إخناتون » ، والذى تزامن مع بروز قوة سياسية وحربية طموحة فى المنطقة تمثلت فى الحيثيين ، حيث طمعت خيتا فى مجابهة النفوذ المصرى وانشاء إمبراطورية فتية لها فى سوريا ، فوقع الصراع السياسى والحربى المرير بينها وبين مصر حول سوريا والذى أمتد لفترة طويلة ، شهدت فيها منطقة الشرق الأدنى أحداث جسام !.

أمنحتب الثانى وتحوتمس الرابع ومواصلة الانتصار ..

عقب وفاة فرعون مصر العظيم « تحوتمس الثالث » ، أعتلى عرش مصر ولده وولى عهده « أمنحتب الثانى » (١٤٢٧ – ١٤٠٠ ق. م) ، الذى نجح فى الحفاظ على الإمبراطورية المصرية وحقق انتصارات هامة فى سوريا وفلسطين من خلال الحملات الحربية التى قام بها ، والتى أثبت من خلالها مدى قوته وكفاءته الحربية كمقاتل جسور وكولى عهد يستحق أن يخلف والده المحارب العظيم على عرش مصر .. وقد سجلت الأعمال والحملات الحربية للفرعون « أمنحتب الثانى » من خلال ثلاث لوحات ، هم لوحة ميت رهينة ، ولوحة الكرنك ، ولوحة عمدا .. ولقد أشارت لوحة الكرنك إلى قيام الملك « أمنحتب الثانى » فى السنة الثانية من حكمه

بحملة حربية لتأديب الولايات السورية الثائرة .. ولقد فتحت مدينة نى أبوابها لـه ، ولكن كانت هناك مدائن أخرى ليست على ولاء نى ، مثل إيكاث التى كانت تتآمر ضد الحامية المصرية ، فقام الفرعون بمعاقبة المتآمرين وخلص الحامية ، ويبدو أن الملك أتجه بعد ذلك نحو الفرات حيث وصل إلى الحدود التى وقف عندها أبوه. ويذكر نص الكرنك ما يلى : « يأتى إليه رؤساء ميتانى ، وجزيتهم فوق ظهورهم ، عسى أن يمنحهم جلالته نسمة الحياة » .. وعاد « أمنحتب الثانى » بعد الانتهاء من مهمته إلى مصر ، ولكنه لم يتوجه إلى طيبة مباشرة ، بل لبث وقتاً ما فى منف ، وكان معه العديد من الأسرى ، من بينهم ٥٠٠ أسير سورى ، و٢٤ من السبايا ، و٤٦٠ من الكنعانيين ، و٢٣٢ من أبناء الأمراء ، و٣٢٣ من بنات الأمراء .. ونقرأ فى لوحة عمدا من العام الثالث من حكمه ، أن جلالته بعد أن عاد من رتنو ، وبعد أن قهر هؤلاء الذين لم يستشعر حبهم له ، وبعد أن مد حدود مصر فى حملة النصر الأولى له ، عاد جلالته فرح القلب إلى أبيه آمون ، بعد أن قتل بهراوته الرؤساء السبعة الذين كانوا فى ناحية تخسى ، ووضعهم مقلوبين على مقدمة سفينته ، التى كان اسمها « عا خبرو رع ، مثبت الأرضين » ، وقد علق ستة من هؤلاء الأعداء على جدار سور طيبة. أما السابع فقد أرسل بسفينته إلى النوبة (كوش) ، وعلق هناك على سور نباتا ، ليكون عبرة تريهم قوة انتصار جلالته إلى الأبد.

وكان للملك « أمنحتب الثانى » حملتان أخريان فى العامين السابع والتاسع من الحكم ، كما ورد من خلال لوحة ميت رهينة ، حيث اجتاح فى الحملة الأولى رتنو ، ثم عبر نهر العاصى (الأورنت) ، والتحم مع العدو وانتصر عليه ، وقابله فى طريق العودة أمير قادش ، وأقسم بين يديه يمين الولاء .. أما حملة العام التاسع ، فقد أتجهت إلى يحم التى خربها وأسر أمرائها وأولادهم ، وغنم متاعهم. ولم يبعد كثيراً شمال بحر الجليل ، ورأى فى الحلم أن آمون يمنيه النصر ، فأتجه بعد ذلك صوب العديد من مدن كنعان (فلسطين) ، وأستولى عليها وأسر أمرائها. وتشير نصوص الفرعون إلى أن عدد الأسرى فى هذه الحملة بلغ حوالى ٦٨٩٠٠٠ أسير .. وتنتهى لوحة ميت رهينة بفقرة تصور النتائج التى ترتبت على انتصارات الفرعون المحارب « أمنحتب الثانى » ، جاء فيها : « والآن حين سمع أمير نهرين وأمير خيتا وأمير سنجار بالنصر العظيم الذى تم لى ، تنافسوا فى تقديم هداياهم لى من كل البلاد ، وتوجهوا لى بدعائهم من أجل إقرار السلام ، ومن أجل أن أمنحهم نسمة الحياة ، وقالت رسلهم لى : أتينا

بجزيتنا إليك يا ابن رع ، أمنحتب ، حاكم الحكام ، الأسد الهصور فى كل مكان ، وفى كل الأرضين إلى أبد الابدين ".

وعقب وفاة الملك " أمنحتب الثانى " تشير الأحداث إلى أن سوريا قد ثارت ثورتها التقليدية بعد وقت قليل من ولاية ولده الملك " تحوتمس الرابع " (١٤٠٠ – ١٣٩٠ ق. م) للعرش ، بعد أن كانت قد هدأت لما يزيد على العشرين عاماً ، وكأنما تناست قوة مصر ، أو استضعفت عاهلها ، أو ربما أرادت أن تختبر عوده ، إلا أن " تحوتمس الرابع " توجه على رأس حملة إلى منطقة التمرد ، وعاد الجيش المصرى من آسيا محملاً بالغنائم ، وبعدد كبير من الأسرى. وفى العام الثامن من حكمه وقعت ثورة فى النوبة السفلى (واوات) ، واضطر الملك إلى قيادة جيشه إلى الجنوب لاخماد هذا التمرد .. ويبدو أن هذه الحملة والحملة السابقة على آسيا كانت الأعمال الحربية الوحيدة التى قام بها الملك ، وقد وردت إشارات عن نشاطه الحربى فى عدة نصوص ، منها إشارة فى قوائم القرابين التى قدمها الملك إلى المعبود آمون على أنه أستولى على بلاد نهرين. وفى مقبرة أحد قواده " خع ام حات " نرى صورة لـ" تحوتمس الرابع " ومن ورائه أوان من الذهب والفضة جاء بها بعض الأسيويين. وأخيراً عن حملاته ضد النوبيين فقد سجل على مركبته (عربته) الحربية صراعه معهم ، كما قام الفرعون بتسجيل معاركه مع النوبيين على لوحة من كونوسو بالقرب من أسوان.

وخلال عهد " تحوتمس الرابع " شعر كل من المصريين والميتانيين ببوادر الخطر من أطماع دولة الحيثيين المجاورة لهما فى آسيا الصغرى ، وأدركت كل من الدولتين أن أمن التجارة البرية التى يأخذون بناصيتها فى أسواق الشرق الأدنى لن يستقر إلا إذا استقرت قبله أحوال السياسة بينهما ، ورأى الفرعون أن خير رباط للسلم المنشود هو رباط المصاهرة ، فتزوج من ابنة الملك الميتانى " ارتاتاما " وجعلها من زوجاته الرئيسات ، وأطلق على هذه الأميرة اسماً مصرياً وهو " موت أم ويا ".

بزوغ قوة الحيثيين فى المنطقة وبداية الصراع مع مصر ..

تشير الدراسات التاريخية إلى أن الشعب الحيثى أو الخيتى هو واحد من الشعوب الهندوأوروبية ، الذى وصل إلى منطقة آسيا الصغرى ، ليتخذ من « خاتوشاش » (بوغاز كوى الحالية) الواقعة فى المنعطف الواسع لنهر الخاليس عاصمة للمملكة التى أنشأها فى هذه المنطقة ، وكان ذلك على الأرجح فى مطلع الألف الثانى قبل الميلاد .. وقد كانت المملكة الحيثية فى نشأتها مثلها مثل كل ممالك الشرق الأدنى القديم ، مكونة من إتحاد دويلات عديدة متجاورة فى الأناضول ، وكان نتيجة هذا الاتحاد قيام أول مملكة حيثية خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد .. وخلال النصف الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة لم يكن للحيثيين دور يذكر فى علاقتهم بمصر ، أما فى عهد « أمنحتب الثالث » (١٣٩٠ – ١٣٥٢ ق. م) فقد ظهر اسم خيتا فى أربعة قوائم وقد ورد ذكرهم من خلال الخطابات التاريخية الشهيرة المعروفة باسم رسائل العمارنة .. ومنذ عهد الملك الحيثى « شوبيلوليوما الأول » بدأ نجم الحيثيين فى الأناضول فى الصعود ببطء ، وكان صعود الحيثيين من معاقلهم فى مرتفعات الأناضول خلال أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد مثل تهديداً خطيراً لمصر ولإمبراطوريتها فى سوريا وفلسطين ، حيث طمح « شوبيلوليوما الأول » إلى تكوين إمبراطورية حيثية فى سوريا مستغلاً توقف الحملات الحربية المصرية هناك طوال عهد « أمنحتب الثالث » الذى بلغ نحو ثمانية وثلاثين عاماً ، وأصبح هدفه الاستراتيجى اخضاع ولاية آمورو السورية فى الشمال لنفوذه السياسى واقتطاعها من أملاك الإمبراطورية المصرية .. وعلى الرغم من وصول إحدى الرسائل إلى « أمنحتب الثالث » من أحد الحكام السوريين المتحالفين مع مصر التى يبلغه فيها بأن الحيثيين قد غزوا أرضه وأنه يطلب جيشاً من مصر لمساعدته ، لم يحرك « أمنحتب الثالث » ساكناً ، وكان قد تقدمت به السن حين وصلته الأنباء ، بل ولم يحركه أن صلة مصر بمستعمراتها كادت أن تنفصم ، مما أدى إلى تقلص الحكم المصرى فى ولاياتها الأسيوية.

تدهور النفوذ السياسى والحربى المصرى فى سوريا خلال عهد العمارنة ..

فى أواخر حكم الملك " أمنحتب الثالث " بدأت الإمبراطورية المصرية فى التداعى ، وكانت فى حاجة إلى ملك محارب قوى الشكيمة يستطيع أن يرد عنها شر الجيران الطامعين. وكان الأمراء والحكام السوريين بين مخلص موالى لمصر ، ومتمرد يتمنى لو أتيحت له الفرصة للتخلص من الحكم المصرى .. ولكن حدث أن أعتلى عرش مصر بعد " أمنحتب الثالث " خليفته وولده الملك " إخناتون " (١٣٥٢ – ١٣٣٦ ق. م) الذى كان رجلاً مثالياً يعيش فى سبيل دعوته الدينية التى تنادى بالتوحيد والغاء عبادة كافة الآلهة المصرية الأخرى ، وقد وقع الصدام العنيف بينه وبين كهنة آمون رع مما دفعه إلى ترك طيبة وتأسيس عاصمة جديدة فى مصر الوسطى عرفت باسم آخت آتون (تل العمارنة الحالية) ، وقد جعلها مركزاً لدعوته الدينية المتمثلة فى عبادة الإله الواحد آتون ، وكذلك عاصمة للإمبراطورية المصرية ، فعرفت هذه الحقبة لدى المؤرخين باسم عصر العمارنة .. ومما يؤسف له أن " إخناتون " قد آمن بما كانت تقوله عصبة المنافقين فى داخل البلاط الملكى وفى الخارج ، ولم يكلف نفسه عناء معرفة حقيقة الأوضاع السياسية خارج مصر ، رغم أن بوادر الانهيار كانت تتضح يوماً بعد يوم.

وفى هذه الأثناء كانت الأوضاع الحربية والسياسية المصرية فى آسيا فى حالة يرثى لها ، فقد استغل الحيثيون بقيادة ملكهم الطموح " شوبيلوليوما الأول " الاضطرابات التى سببتها ثورة " إخناتون " الدينية فى الداخل ، وأخذوا يغيرون بين الحين والآخر على أطراف سوريا ، ويضمون الولايات السورية إلى ممتلكاتهم ولاية بعد أخرى ، كما قادوا التحالف ضد السيادة المصرية ونجحوا فى ذلك ، وبدأت مدن كثيرة فى كنعان (فلسطين) وفينيقيا تستقل بنفسها ، وتخرج عن السيادة المصرية ، بل إن بدو الصحراء أخذوا يثيرون القلاقل والمتاعب ، ومنهم قبائل الخابيرو .. وسوف يصل تدهور الأوضاع إلى نجاح أمير قادش فى استعادة سهل سوريا الشمالى ، وإلى استيلاء حاكم آمورو المدعو " عزيرو " ابن " عبد شرتا " – والذى سيجبر على التحالف مع الحيثيين ونقض ولاؤه لمصر – على الموانئ الفينيقية التى كان يرتادها المصريون أو كانت تحت نفوذهم ، فأستولى على سيميرا وتونيب ، وعلى الرغم من هذا لم يقم الملك " إخناتون " بأى رد فعل سياسى أو عسكرى.

وبفضل الخطابات التاريخية الشهيرة التى عرفت لدى المؤرخين باسم رسائل العمارنة ، أمكن التعرف على حقيقة الوضع والاضطرابات التى سادت مناطق النفوذ المصرية فى غرب آسيا خلال عهد « إخناتون ». ويمكننا أن نفهم أن سياسته السلمية – وربما – معارضته من ناحية المبدأ والضمير لفكرة الحرب ، قد جعلته يفقد مناطق النفوذ التى أسسها أجداده ، وكان يأمل أن يجمع بين السكان فى تلك المناطق التى يسيطر عليها فى عقيدة موحدة ، ولكنه فشل فى ذلك ، وفقد مناطق النفوذ المصرى.

لم يترك الحكام المصريون أو الأمراء الأسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا وقد لجأوا إليها ، فأرسلوا الرسل يحملون الكتب إلى الملك « إخناتون » ، ولكنه لم يبد اهتماماً ، بل إنهم أرسلوا إلى أمه الملكة « تى » لعلها تجعل ابنها يفيق من غفلته ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، ورفض أن يتخذ موقفاً من الأحداث التى تجرى من حوله ، وأكتفى بالتعبد لإلهه آتون ، ووضع الأناشيد فى مدحه والثناء عليه .. وهذه هى صرخة أحد المخلصين لمصر ، وهو « ربعدى » حاكم جبيل ، والذى بعث برسالة إلى الملك « إخناتون » يقول فيها : « إن والدك لم يخرج إلينا بجولة تفتيشية على أقاليمه ومقاطعاته ، منذ عاد أبوك من صيدا ، بدأ القوم يتصلون بالعدو ، والبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقولون ». وقد أرسل « ربعدى » إلى « إخناتون » أكثر من خمسين كتاباً ، ولكنه كان يصم أذنيه. ولما أصبحت جبيل مهددة تماماً بالغزو من خيتا عدوة مصر ، أرسل للملك يقول : « ها هو ذا الملك قد سمح بأن تخرج المدينة المخلصة من يده ». وفى رسالة أخرى يحذر « ربعدى » الفرعون من « عبد شرتا » أمير آمورو ، والذى كان يتظاهر بالولاء لملك مصر ، فنرى « ربعدى » يقول : « عبد شرتا كلب يسعى لامتلاك مدن الملك ». ومرة أخرى لم تكن كتب « ربعدى » تلقى ما يستحق التقدير ، وربما يرجع ذلك إلى أن عدوه وعدو مصر « عبد شرتا » كان يدس وينافق ، وكان يكتب لـ « إخناتون » متهماً « ربعدى » بالخيانة ، فنراه وهو يسعى إلى تقليص ممتلكات مصر فى الخارج ، يكتب إلى الملك قائلاً : « إلى مولاى الملك ، عبد شرتا ، إننى تراب قدميك ، وعلى قدميك أسقط سبع مرات ، أنا كلب حارس كل أرض آمورو ، للملك مولاى » .. وكتب سكان تونيب (بعلبك) إلى الفرعون « إخناتون » راجين منه أن يرسل إليهم بمساعدة قائلين : « تونيب ، مدينتك ، تبكى وتسيل دموعها ، لأنه لا منقذ لها ، ولعدة سنوات أرسلنا الرسل إلى

سيدنا – ملك مصر – ولكن لم نتلق منه أية إجابة ولا حتى كلمة واحدة ". ويقول " عبد خيبا " حاكم أورشليم فى إحدى رسائله : " لعل الملك يرعى البلاد ويرسل القوات ، لأنه إذا لم تأت القوات هذا العام ، فإن كل أراضى الملك سيدى ، سوف تضيع " .. وفى تلك الأثناء ، كانت شعوب الخابيرو الصغيرة قد بدأت تتسلل إلى سوريا من الجنوب ، وقد عملوا على إثارة الاضطرابات والتمرد فى المنطقة ، وأستولوا على مجدو ، ثم مناطق أورشليم (القدس) القديمة .. وفى حالة من اليأس أرسل الأمراء الموالون لمصر خطاباتهم العديدة ، شاكين طالبين حماية الفرعون ويعلنون أن الغزاة ينتصرون فى كل مكان.

وعلى الرغم من كل خطابات النجدة هذه لم يتحرك " إخناتون " إلا قليلاً ، فأحياناً كان يرسل قوات بسيطة من حملة الأقواس ، وفى أغلب الأحيان كان يكتفى بإيفاد مبعوث لبحث الموقف فى فينيقيا ، ولكن هذا الأخير بطريقة غريبة جداً ، ثبت أمير آمورو فى كل الأراضى التى كانت خاضعة للنفوذ المصرى ، تلك الأراضى التى سوف تشمل جبيل أيضا ، وهذا يعنى أن الفرعون قد أعترف بالأمر الواقع واكتفى باعتبار أمير آمورو موال له ، ويخضع لأوامره .. وأخيراً سقطت ميتانى التى تحالفت مع مصر فى عهد " تحوتمس الرابع " تحت ضربات الحيثيين والآشوريين المتوالية ، وأصبح الحيثيون الآن فى أوج قوتهم وسوف يرغمون أمير آمورو " عزيرو " على توقيع معاهدة تحالف معهم وتحويل ولائه لهم بدلاً من مصر ، على الرغم من أن هذا الأخير كان يفضل أن يبقى مستقلاً فى حكم مملكته منذ عهد " تحوتمس الثالث ".

الصحوة المصرية والاصطدام بالمد الحيثى ..

حين أنتهت الأزمة التى نتجت عن ثورة " إخناتون " الدينية فى مصر ، حاول فراعنة مصر إستعادة الممتلكات المصرية فى آسيا ، ووقع الصدام العسكرى المباشر بين مصر وخيتا .. ويرى بعض المؤرخين – طبقاً للمصادر الحيثية – أن السبب المباشر لاندلاع الحرب بين مصر وخيتا إنما يرجع إلى رسالة تلقاها الملك الحيثى " شوبيلوليوما الأول " من ملكة مصرية مجهولة ، طلبت فيها من العاهل الحيثى أن يزوجها واحداً من ابنائه ليربط بذلك بين العرش المصرى والحيثى. ولم يفوت " شوبيلوليوما " هذه الفرصة النادرة ، فأرسل أحد أبنائه على الفور ، ولكن لم يقدر لهذا الأمير الحيثى أن يجلس على العرش المصرى ، بل لم يكتب له أن

تطأ قدمه أرض مصر ، إذ قابله الجيش المصرى فى طريقه وقتله. وأخذ « شوبيلوليوما » يعد العدة ليثأر لولده ، ولكنه مات قبل أن يبلغ من أجله بعض ما تمنى ، وقد خلفه على العرش الحيثى « مورسيل الثانى ». ولاتزال هذه الرواية الحيثية محل جدل بين المؤرخين ، حيث لم يذكر عنها أى شىء فى المصادر المصرية.

ويبدو فى واقع الأمر أن الصدام الفعلى بين المصريين والحيثيين يعود تاريخه إلى عهد الملك « توت عنخ آمون » (١٣٣٦ – ١٣٢٧ ق. م) ، ذلك أن بقايا مقبرة القائد العسكرى « حور محب » (الذى صار آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة فيما بعد) فى سقارة تشير إلى حملة حربية كللت بالنصر فى آسيا تحت قيادته الشخصية خلال عهد « توت عنخ آمون ». وقد تضمنت المقبرة منظر آخر يمثل « حور محب » وهو يقدم للملك « توت عنخ آمون » مجموعة من الحكام الأسيويين المهزومين ومعهم حاملى الجزية ، وقد تضمنوا بعض الحيثيين .. وعندما تولى « حور محب » عرش البلاد (١٣٢٣ – ١٢٩٥ ق. م) ، قام فى العام السادس عشر من حكمه بقيادة الجيش المصرى من جديد إلى الجبهة الأسيوية واصطدم بالقوات الحيثية فى معركة هناك ، حيث كان ذلك أول صدام عسكرى مباشر بين المصريين والحيثيين ، ونجح الفرعون والقوات المصرية فى إستعادة جزء صغير من مناطق النفوذ التى فقدتها مصر هناك بعد أن عبر بقواته مدن جبيل وقرقميش التى كانت تحت سيطرة الحيثيين منذ أيام ملكهم « شوبيلوليوما الأول » ، وبعد أن أتخذ طريقه من جبيل على الساحل الفينيقى إلى سيميرا ، ثم قادش ومجاوراتها نحو الشمال ، مما سبب ضغطاً كبيراً على الحيثيين الذين كانوا يسيطرون على شمال سوريا ، الأمر الذى أدى إلى عقد المعاهدة القديمة بين « حور محب » والملك الحيثى « مورسيل الثانى » ، والتى سبقت تلك المعاهدة الشهيرة التى تمت فيما بعد بين « رمسيس الثانى » والملك الحيثى « خاتوسيل الثالث » .. ويبدو أن المصريين والحيثيين كانا فى حاجة ماسة إلى عقد هذه المعاهدة ، فقد كانت مصر فى حاجة إلى الوقت لإعادة تنظيم أمورها الداخلية ، كما كان الحيثيون فى حاجة إلى تثبيت أقدامهم فى المناطق التى سيطروا عليها فى سوريا ، وحتى يتفرغوا لشمال العراق. وتعتبر هذه المعاهدة التى تمت بين الملك المصرى « حور محب » والملك الحيثى « مورسيل الثانى » من أول المعاهدات الدولية التى عقدت فى التاريخ القديم ، ولكن لسوء الحظ لم تصلنا نصوص هذه المعاهدة ، ومن ثم

فإنه لم يقدر لنا أن نعرف مضمونها وما نصت عليه من بنود ، وإن كان يرجح أنها تضمنت العديد من البنود التى وردت فيما بعد فى المعاهدة التى أبرمت ما بين الملك " رمسيس الثانى " والملك الحيثى " خاتوسيل الثالث " ، حيث أشير فى المعاهدة الأخيرة إلى ما قد يفهم منه ذلك. وكان من ثمار هذه المعاهدة حدوث هدنة سياسية وحربية بين مصر وخيتا لفترة من الزمن حتى قامت فى مصر أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة.

قيام الأسرة التاسعة عشرة وتوكيد حكم العسكريين ..

فى العام ١٢٩٥ قبل الميلاد قامت فى مصر الأسرة التاسعة عشرة التى كانت فى أصولها أسرة عسكرية عريقة عاشت وخدمت منذ مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى المنطقة الممتدة بين هليوبوليس وأواريس بشرق الدلتا ، واشتركت فى غزو كنعان وشمال سوريا. وكان كلاً من الملك " رمسيس الأول " مؤسس الأسرة وولده وخليفته الملك " سيتى الأول " ينتميان بشكل وطيد إلى المؤسسة العسكرية المصرية ، وقد خدما كضباط محترفين فى بداية تاريخهما الوظيفى كما أشارت النصوص المصرية المختلفة. فالقائد العسكرى " با – رعمسو " (الذى أصبح الملك " رمسيس الأول " فيما بعد) كان والده المدعو " سيتى " يحمل الرتبة العسكرية قائد القوات ، كما كان عمه " خع إم واست " ضابطاً بالجيش. وقد شغل " رمسيس " المناصب العسكرية الرفيعة : قائد القوات ، والمشرف على قلعة ثارو ، والمشرف على مصبات النيل ، والمشرف على الخيل ، وسائق عربة جلالته الحربية ، وقائد جيش سيد الأرضين .. وقد استحوذ " رمسيس " على مكانة رفيعة لدى صديقه ورفيق سلاحه القائد " حور محب " الذى أعتلى عرش البلاد وأصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، والذى قام بترقيته – خلال فترة حكمه – إلى منصب الوزير ، وقد أختاره ليكون خليفته فى حكم البلاد فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ويبدو أن أسباب هذا الاختيار كانت تعود إلى أن " رمسيس " كان إدارياً حاذقاً ومنتمياً إلى المؤسسة العسكرية التى كان يثق فيها " حور محب " ثقة مطلقة ، بالإضافة إلى أن " رمسيس " كان لديه ذرية تتمثل فى ولده القائد العسكرى " سيتى " ، الأمر الذى قد يمنع حدوث أى مشكلات مستقبلية بالنسبة له فى خلافته على العرش ، حيث كان " حور محب " لم يكن له وريث من أبناؤه .. وهكذا فإن صعود " رمسيس الأول " إلى العرش قد

رسخ حكم الملوك العسكريين القادمين من المؤسسة العسكرية والذى بدأ باعتلاء القائد العام للجيش المصرى « حور محب » عرش البلاد ، حيث لم يكن « حور محب » يرتبط بأى صلة دم بملوك الأسرة الثامنة عشرة على الرغم من أن المؤرخين قد وضعوه كآخر ملك لهذه الأسرة .. أما عن القائد العسكرى « سيتى » (الذى أصبح الملك « سيتى الأول » فيما بعد) فقد أشارت النصوص التاريخية إلى أنه كان يشغل المناصب العسكرية الرفيعة : قائد القوات العسكرية ، والمشرف على قلعة ثارو ، والمشرف على الخيل ، ورئيس المجايو (الشرطة) ، والمشرف على البلاد الأجنبية.

وقد أعتلى « رمسيس الأول » عرش البلاد وهو فى سن متقدمة ، وقام بتعيين ولده القائد العسكرى « سيتى » كولياً للعهد ووزيراً للبلاد ، ولم يستمر « رمسيس » فى الحكم أكثر من عامين حتى خلفه ولده « سيتى » .. وقد كان بديهياً أن يكون الموقف السياسى والاستراتيجى والعسكرى فى منطقة الشرق الأدنى القديم واضحاً جلياً لدى ملوك الأسرة التاسعة عشرة العسكريين الذين أخذوا على عاتقهم إستعادة الإمبراطورية المصرية فى آسيا وعودة هيبة مصر السياسية والحربية مرة أخرى ، حتى أن بعض المؤرخين قد رأوا أنه خلال عهد « رمسيس الأول » عمل « سيتى » على الاعداد والتجهيز للحملات الحربية المصرية التى تهدف لاستعادة الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان (فلسطين).

سيتى الأول وحروب استرداد الإمبراطورية المصرية فى سوريا وكنعان ..

عندما تولى « سيتى الأول » عرش مصر عقب والده « رمسيس الأول » مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، كان عليه أن يعمل على استرداد الإمبراطورية المصرية المفقودة فى آسيا وأن يعيد لمصر هيبتها السياسية والحربية كقوة عظمى فى الشرق الأدنى القديم ، بعد أن ضعفت تلك الهيبة خلال عصر العمارنة وما تلاه .. وكانت الأوضاع السياسية تتمثل فى أن مصر لم تفقد نفوذها كاملاً فى كنعان (فلسطين) حيث كان لها نفوذ فى بعض المناطق مثل بيت شان ورحوب وربما مجدو ، بينما جاهرت العديد من المدن بالعداء لمصر بل ودخلت فى حروب مع المدن التى حافظت على ولائها لمصر .. ومن ثم فقد أعتبر « سيتى الأول » نفسه مسئولاً عن عودة سمعة مصر السياسية والحربية كما كانت من قبل خلال فترات المجد الحربى المصرى

فى النصف الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وعبر عن ذلك باللقب الذى أتخذه " وحم مسوت " أى مجدد الميلاد ، وقد قام بتسجيل معاركه وحملاته الحربية على الجدران الشرقية والشمالية لصالة الأعمدة الكبرى فى معبد آمون بالكرنك.

وفى العام الأول من حكمه (١٢٩٤ – ١٢٩٣ ق.م) ، قام الفرعون " سيتى الأول " بالقضاء على تمرد جرى على حدود مصر الشرقية ، وخرج على رأس الجيش المصرى لمواجهة بدو الشاسو فى جنوب كنعان (فلسطين) ، حيث كان الشاسو قد أستولوا على الحصون والحاميات المصرية التى تمتد بطول الطريق البرى من الحدود المصرية إلى جنوب كنعان (فلسطين). وتصف نصوص الفرعون بالكرنك التمرد الذى قام به بدو الشاسو كما يلى : " لقد جاء أحدهم إلى جلالته ليخبره بأن الأعداء الخاسئين من الشاسو قد قاموا بالتمرد ، وأن رؤساء قبائلهم قد أتحدوا فى مكان واحد ، يتمركز فى سفوح جبال خورو (سوريا وفلسطين) ، وأنهم فى حالة من الغضب والعراك ، وأن كل واحد منهم يذبح زميله ، ولم يعد أحدهم يطيع أوامر القصر ".

ومن ثم فقد خرج الفرعون " سيتى الأول " بالجيش المصرى من قلعة ثارو ، وأتجه نحو صحراء سيناء وقام بإعداد حصون صغيرة لحماية آبار المياه فى المنطقة الممتدة من القنطرة حتى رفح عبر طريق حورس الحربى ، ثم أخذ يتوغل الجيش المصرى فى كنعان (فلسطين) ليقضى على المدن الثائرة مثل ينوعام ، والتى كان يؤازرها عدو مصر التقليدى خيتا ، وتقدم حتى مدينة " با كنعان " (غزة الفلسطينية) ، ثم قام بهزيمة الشاسو الثوار بالقرب منها بعد أن أرتكب مذبحة كبرى بحقهم ، ووصل بعد ذلك إلى سوريا العليا ، حيث نشاهد الأمراء اللبنانيين يعلنون ولاءهم للفرعون وقد فرض عليهم جباية أخشاب الأرز التى قاموا بقطعها بأنفسهم .. والجدير بالذكر أنه قد عثر للملك " سيتى الأول " على لوحات فى قادش ، وتل شهاب ، مما يشير إلى مدى التوغل والنجاح العسكرى الذى حققه من خلال هذه الحملة فى هذه المناطق.

وفى عودته للجنوب قام " سيتى الأول " بحملة سريعة على بيت شان حيث قضى على تمرد قام فيها ، ومن ثم فقد أرسل ثلاثة فرق من جيشه لفك الحصار ومعاقبة المدن المتمردة ، وقد خلد نجاحه العسكرى على لوحة بيت شان الأولى ، واللوحة مؤرخة بالعام الأول من حكم الفرعون ، ويصف نص اللوحة العمليات الحربية للجيش المصرى بقيادة الفرعون كما يلى :

« هذا اليوم جاء شخص ليخبر جلالته أن العدو الخاسئ فى مدينة حماة جمع لنفسه العديد من الرجال وأستولى على مدينة بيت شان وعقد تحالفاً مع بيلا ولم يصرح لأمير رحوب بالخروج ، وقد أرسل جلالته جيش آمون الأول المكون من حملة الأقواس إلى مدينة حماة ، وجيش رع الشجاع إلى مدينة بيت شان ، وجيش سوتخ المسمى الأقواس المنتصرة إلى مدينة ينوعام .. وفى خلال يوم سقط الكل فى قبضة جلالته ملك مصر العليا والسفلى (من ماعت رع ، ابن رع) له الحياة ».

وهكذا أصبح « سيتى الأول » سيدا للموقف فى كنعان (فلسطين) ، واستقبل الجزية من بعض دويلات المدن الكنعانية التى وصل إليها بقواته ، وتمكن من احتلال الجليل وواصل تقدمه نحو سوريا العليا ومنطقة الساحل حتى بلغ مرتفعات صور ، وأعاد لمصر مرة أخرى نفوذها فى غرب آسيا وسوريا العليا .. وقد أظهرت المناظر المسجلة على جدران معبد الكرنك العودة المظفرة للفرعون والجيش المصرى بعد حملته الأولى ، وهو يسوق أسراه من الشاسو حيث تستقبله جموع الكهنة وكبار الموظفين بالترحاب على حدود مصر الشرقية عند قلعة ثارو ، أما أولئك الأسرى وجزيتهم فيقوم بتقديمهم قرباناً إلى المعبود آمون رع سيد طيبة وإله الدولة الرسمى.

وفى حملة تالية ، أتجه « سيتى الأول » مرة أخرى نحو آسيا لكى يتابع حملته الأولى التى طرد فيها الشاسو وأخضع بلاد كنعان ، ولا نعرف تفاصيل هذه الحملة الأخيرة ، لأن نصوصها على جدران معبد الكرنك قد ضاعت معالمها ، ولم يبق من تسجيلها على جدران معبد الكرنك سوى بعض البقايا ، وهى توضح مناظر هجوم الفرعون على قادش وقد سجل المنظر عبارة « الصعود الذى قام به الفرعون ليدمر أرض قادش وأرض آمورو » ، وتمكن الملك « سيتى الأول » فى هذه الحملة من الاستيلاء على العديد من المدن الآمورية .. وقد عثر للملك على تمثال على هيئة أبى الهول فى معبده الجنائزى بمنطقة القرنة ذكر عليه معظم البلاد التى أخضعها فى كنعان (فلسطين) وفى آسيا وهى حوالى ستة عشر بلدا (مساكن أصحاب الأقواس ثم بلاد خيتا وبلاد نهرين وأرسا وعكا وسامرا وبمرا وبيت شائيل وينوعام وكمهم وأواوزا وكمة وصيدا واوثو وبيت عنات وقراميم) ، وربما قد وصل فى هذه الحملة الثانية حتى قادش بعد أن تقدم عبر الساحل الفينيقى ، وتذكر نصوص تمثاله أنه أستولى على بلاد

سامرا وبلاد آمورو.

وبعد أن اطمأن « سيتى الأول » إلى استتباب الأوضاع فى الجبهة الغربية بعد حملته الحربية على الليبيين التى سنتحدث عنها لاحقاً ، عاد ليقود الجيش المصرى مرة أخرى فى الجبهة السورية فى السنة التالية (الخامسة أو السادسة) ليواجه الحيثيين. وفى ذلك الوقت كانت مدينة قادش المحورية فى وسط سوريا قد خرجت عن النفوذ المصرى منذ عصر العمارنة ، فحدد « سيتى الأول » هدفه وهو قهر أرض قادش وأرض آمورو. ومن ثم ففى حملة ثالثة عاد الجيش المصرى بقيادة « سيتى الأول » إلى آسيا وتقابل مع الحيثيين شمال قادش ، ولا يمكن تحديد موقع المعركة بالضبط نظراً لعدم وجود نص يحدد مكانها ، حيث صور منظر المعركة أعدادا كبيرة من القتلى والأسرى الذين أحضروا إلى مصر ، وربما وقع الفرعون فى هذه المرة معاهدة مع ملك الحيثيين ولكن لم تصلنا نصوصها ، كما أنه ليس لدينا تفاصيل عن المعركة التى دارت بين المصريين وقوات « مواتلى » ملك الحيثيين ، وإنما تذكر نصوص الفرعون أنه قد عاد منتصراً من هذه الحملة بعد أن قام بالاستيلاء على قادش. وخط سير هذه الحملة ليس معروفاً بالضبط ، وإن كان من المرجح أن « سيتى الأول » قد أتبع طريق « تحوتمس الثالث » فنقل جيشه بحراً إلى فينيقيا ثم هاجم آمورو ليشل حركتها ولو مؤقتاً ، ثم انحرف إلى الداخل وهاجم قادش نفسها. وقد خلد « سيتى الأول » هذا الحدث التاريخى بإقامة لوحة تذكارية فى قلب قادش نفسها كرسها للمعبودات المصرية آمون وست ومونتو. ويبدو أنه سرعان ما عادت سيطرة الحيثيين على قادش مرة أخرى ، لأن المصريين لم يتركوا حاميات عسكرية مناسبة تستطيع احتلال قادش وآمورو القريبتان من مناطق النفوذ الحيثى.

وبنهاية حروب « سيتى الأول » فى آسيا وطبقا لنصوص الكرنك ، فقد تمكن « سيتى الأول » من تحقيق انتصارات كثيرة أعاد من خلالها سيطرة مصر على مستعمراتها السابقة فى كنعان وأوبى ، ودعم حقوق مصر فى نصف الساحل الجنوبى لفينيقيا ، وباستيلائه على هذا الساحل اقتطع مقاطعة آمورو من أيدى الحيثيين – فيما عدا الجزء الشمالى الأقصى – وأصبحت أملاك مصر ملاصقة للأراضى الخاضعة لنفوذ الحيثيين ، وأصبح من المحتم أن تصطدم القوتان الكبرتان. ومن ثم فقد اضطر ابنه الملك « رمسيس الثانى » أن يخوض معركته الشهيرة فى قادش ضد الحيثيين فيما بعد ، فهناك ما يشير إلى أن المصريين رغم أنهم قد اكتسبوا سلطة

مؤقتة على سهل سوريا الشمالى فسرعان ما عاد النفوذ الحيثى إليه من جديد ، فخيتا لم ترض بفقدان قادش وآمورو وأصر الملك الحيثى « مواتلى » على استعادته للأملاك الحيثية ، وكان ذلك بداية للصراع الذى استمر بعد ذلك.

ونظراً لأن حرب الفرعون مع الحيثيين لم تأت بنتائج حاسمة لأى من الطرفين ، فلقد أدرك الخصمان الكبيران الفرعون المصرى « سيتى الأول » والملك الحيثى « مواتلى » أنه لن يتيسر لأحدهما القضاء على قوة الآخر بسهولة ، فتميع الموقف بينهما إلى حين ، وربما أنتهى إلى عقد هدنة بينهما ، والواقع أنه لم يعثر على أى أثر يحمل نصوص ذلك الصلح المحتمل ، وإنما أشير إليه فى المعاهدة الشهيرة التى أبرمت بين « رمسيس الثانى » والملك الحيثى « خاتوسيل الثالث » ، حيث قال الملك الحيثى فى معرض الحديث عن مواد الميثاق : « وكذلك الميثاق السابق الذى كان فى زمان أبى ، فإنى سأتمسك بما جاء فيه ، وهكذا رعمسيس حاكم مصر العظيم سيتمسك بذلك معى من هذا اليوم ».

والجدير بالملاحظة فى حروب « سيتى الأول » أنه قد تتبع نفس الخطوط الاستراتيجية الناجحة التى قام بها الفراعنة المحاربون خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى وجه الخصوص الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » ، والتى تمثلت فى تحقيق السيطرة أولاً على بلاد كنعان ثم الاتجاه للسيطرة على المدن الساحلية الفينيقية ، والتى يمكن من خلالها القيام بالهجوم نحو مناطق سوريا الوسطى والشمالية .. ويبدو أن حدود الإمبراطورية المصرية فى نهاية حروب « سيتى الأول » كانت تمتد شرقاً من مصب نهر الليطانى وأن مدن صور ومجدو وربما بيت شان قد استمرت كقواعد عسكرية مصرية. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحرز تقدماً بعيداً فى سوريا الشمالية إلا أنه قد نجح على الأقل فى فرض هيبة مصر فى كل من كنعان (فلسطين) وسوريا الجنوبية وأن يسيطر على إقليم آمورو الموالى للحيثيين ، وأن يعيد إلى الأذهان مجد مصر الحربى.

حملات سيتى الأول على الليبيين والكوشيين ..

فى العام الرابع أو الخامس من حكم الملك « سيتى الأول » ، دفعته الاضطرابات التى وقعت بالجبهة الليبية غربى الدلتا إلى ترك الجبهة الأسيوية ، وقيادة الجيش المصرى غرباً لمواجهة تحركات الليبيين ، التى أصبحت فجأة تمثل خطراً كبيراً فى ذلك الحين بعد أن بدأت هذه القبائل فى محاولة التسلل إلى مصر ، بحثاً عن أماكن استقرار فى أرض مصر الخصبة ، خاصة وأن أراضى الواحات فى الصحراء الغربية كانت معروفة منذ القدم بوفرة مراعيها وأنعامها ، ويبدو أنه كان ضمن هذه الجماعات قبائل التحنو والماشوش .. وقد نجح « سيتى الأول » فى محاصرتها بسهولة كبيرة دون أية مقاومة ولكنه لم يقض على الخطر بشكل كلى ، وسوف يشكل هذا الخطر الكثير من المتاعب لخلفائه. وقد جاء ذكر هذه الحملة الحربية الهامة فى نقوش الحائط الخارجى لقاعة الأعمدة لمعبد آمون بالكرنك بطيبة ، ومن المؤكد أنها كانت المواجهة العسكرية الأكبر مع الليبيين منذ وقت بعيد.

وفى العام الثامن من عهد الملك « سيتى الأول » أتجه الجيش المصرى إلى الجنوب ، حيث ثارت بلاد إرم بالنوبة العليا (كوش) على السيادة المصرية. ولقد ذكرت لوحتان من عمارة غرب وصاى – اللتين كانتا من أهم مراكز الإدارة المصرية فى النوبة العليا (كوش) خلال عصر الدولة الحديثة – مؤرختان بعهد الفرعون ، أن الفرعون قد وصلته أنباءاً هامة أثناء تواجده فى طيبة تفيد بوقوع بعض الاضطرابات من « الأعداء فى أرض إرم » فى الجنوب. ونظراً لخطورة هذه الاضطرابات الغير معتادة على أمن الطرق التجارية المصرية فى الجنوب فى بلاد النوبة ، وكذلك على أعمال التعدين التى كان يقوم بها المصريون فى هذه المناطق ، فقد تحرك الجيش المصرى مغادراً وادى النيل وقام بعبور الصحراء بعد أن كان متمركزاً فى قلعة « مهدأة الأرضين » ، وتمكن من القضاء على هذه الاضطرابات فى سبعة أيام ، كما تمكن من الاستيلاء على خمسة من آبار المياه وسقط فى يده أكثر من أربعمائة أسير. والجدير بالذكر أن هذه الحملة قد اتسمت بأمر هام ذكرته نصوص الفرعون ، تمثلت فى أنه قد أعتمد على تقارير مخابراته عن تحركات وخطط العدو قبل أن يقوم بإرسال القوات المصرية إلى الجنوب .. ولقد كانت هذه الحملة الحربية هى الأخيرة فى تاريخ « سيتى الأول » ، وقد حدثت بعد بضعة

أعوام من حروبه الكبرى التى خاضها فى سوريا وفلسطين والتى سجلها على الجدران الشمالية لقاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك.

* * * * *

المراجع

- Badawi, A.M., 'Die Neue Historische Stele Amenophis II', ASAE 42 (1943).
- Baikee, J., The Amarna Age, London (1926).
- Bryan, B.M., The Reign of Thutomse IV, London (1991).
- Darnell J.C. and Manassa, C., Tutankhamun's Armies, Battle and Conquest during Ancient Egypt's Late 18th Dynasty, New Jersey (2007).
- Davies, N. de G., The Rock Tombs of EL-Amarna, 6 Vols., London (1903-1908).
- Davies, N. de G., The Tombs of Two Officials of Thutmosis the Fourth, London (1923).
- Desroches-Noblecourt, C., Vie et Mort d' Un Pharaon Toutankhamon, Paris (1977).
- Drower, M.S., 'Syria 1550-1400 BC', CAH, Vol. II, Part I, Cambridge (1973).
- Edel, E., 'Die Stelen Amenophis II aus Karnak und Memphis', ZDPV 69 (1953).
- Faulkner, R.O., 'The Wars of Sethos I', JEA 33 (1947).
- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford (1992).
- Hall, H.A., 'Egypt and the External World in the Time of Akhenaten', JEA 7 (1921).
- Kuentz, Ch., 'Deux Steles d' Amenophis II', BdE 10 (1925).
- Malamat, A., 'Campaigns of Amenhotep II and Tuthmosis IV to Canaan', Scripta Hierosolymitana 8 (1961).
- Martin, G.T., The Memphite Tomb of Horemheb, Commander-in-Chief of Tutankhamun, Vol. I, London (1989).
- Mercer, S.A.B., The Tell El-Amarna Tablets, 2 Vols., Toronto (1939).
- Moran, W.L., The Amarna Letters, Baltimore (1992).
- Murnane, W.J., The Road to Kadesh: A Historical Interpretation of the Battle Reliefs of King Seti I at Karnak, Chicago (1985).
- Redford, D.B., 'New Light on the Asiatic Campaign of Horemheb', BASOR 211 (1973).

- Redford, D.B., Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton (1992).
- Sandman, M., Texts from the Time of Akhenaten, Bruxelles (1938).
- Schulman, A.R., 'Some Observations on the Military Background of the Amarna Period', JARCE 3 (1964).
- Spalinger, A.J., 'The Northern Wars of Seti I: An Integrative Study', JARCE 16 (1979).
- Spalinger, A.J., 'The Historical Implications of the Year 9 Campaign of Amenophis II', JSSEA 13 (1983).
- The Epigraphic Survey, Reliefs and Inscriptions at Karnak, Vol. IV. The Battle Reilefs of King Seti I, Chicago (1986).
- Vercoutter, J., 'Une Campagne militaire de Seti I en Haute Nubie. Stèle de Sai S. 579', RdE 24 (1972).
- Zayed, A., 'Une representation inédite des campagnes d'Aménophis II', in: Mélanges Gamal Eddin Mokhtar, ed. Posener-Kriéger, Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (1985).
- Zayed, A., 'Perou-Nefer port de guerre d' Amenophis II', ASAE 66 (1987).